



محب شانه ساز, إيللا داردايون and جان-كلود داقيد (dir.)

حِرَف المعادن في حلب الإرث و الخلف

Presses de l'Ifpo

تمهيد حِرَف المعادن في حلب أي خَلَف ؟

DOI : 10.4000/books.ifpo.12485
Éditeur : Presses de l'Ifpo
Lieu d'édition : Beyrouth
Année d'édition : 2018
Date de mise en ligne : 21 janvier 2019
Collection : Co-éditions
ISBN électronique : 9782351595480



<http://books.openedition.org>

Édition imprimée

Date de publication : 1 avril 2018

Référence électronique

تمهيد In : حِرَف المعادن في حلب : الإرث و الخلف [en ligne].
Beyrouth : Presses de l'Ifpo, 2018 (généré le 08 mars 2019). Disponible sur Internet : <<http://books.openedition.org/ifpo/12485>>. ISBN : 9782351595480. DOI : 10.4000/books.ifpo.12485.

تمهيد

حرف المعادن في حلب

أي حلف ؟

يُهدي المؤلفون هذا الكتاب

إلى حرفيي حلب

ترمي دراستنا إلى مقارنة خصائص تعدين النحاس، و البرونز، و الحديد و المعادن النفيسة، في حلب بشكل خاص، ضمن مُحترفات كانت لا تزال ناشطة قبل عام 2012، مع الأنشطة عينها في عصورٍ سابقة، كانت قد شهدتها أوساط مدينية، كتلك التي تعود إلى العصر البرونزي (حوالي 1200 ق.م)، في أوغاريت (رأس شمرا) قرب اللاذقية على سبيل المثال. إن التوصيف الدقيق للحاضر من شأنه أن يجعلنا نفهم الماضي على نحو أفضل، من دون أن نزعم، مع ذلك، أننا نطمح إلى تبيان صلاتٍ قُربى مباشرة كانت قد نمت على مرّ ألفياتٍ من السنين. وإمّا عمدنا بالأحرى إلى البحث عن صلاتٍ فيما بين أساليب عمل أو وسائل وُجِدَتْ في عصورٍ مختلفةٍ في أوساطٍ طبيعية و ثقافية متقاربة. و قد انبثقت هذه الفكرة من لقاءاتٍ غير ذات طابع رسمي عُقِدَتْ في «بيت الشرق و حوض المتوسط» في مدينة ليون، و جمعت بين باحثين ينتمون إلى أسلاكٍ معرفيّةٍ كعلم إنسان (محب شانه ساز)، و آثار التعدين (إيللا داردايون)، و الجغرافيا (جان-كلود دافيد)، و هم جميعاً عملوا في سوريا و لبنان¹.

ما تمّ نشره هنا هو الجزء الأول من بحثنا الذي أنجز فعلاً، و قد تناول الأنشطة التقليدية المعاصرة. و قد استثنينا من النشر كل ما قمنا به من أبحاثٍ عن المعادن النفيسة، خاصّةً في حلب، كما التحقيقات العديدة المكتملة للحرف العشر التي اخترناها لهذه المرحلة. كما تركنا جانباً قسمًا من ملف الصور الشمسية الضخم التي التقطناها لحرفيي المعادن في حلب، حمص، حماه و دمشق.

من المفترض أن يشكّل الجزء الثاني من هذه الدراسة موضوعًا لمؤلّفٍ آخر، قوامه المقارنة بين الحاضر و الماضي القريب و بين معطيات مكتشفة في الحفريات الأثرية عن التعدين : و نتطلّع أن تلهمنا مقاربتنا للأنشطة المعاصرة في إحسان التعرّف إلى ما يرتبط بالتعدين، الذي يصعب تحليله في المواقع الأثرية مثل أوغاريت في العصر البرونزي القريب، و ذلك بتناول الظاهرات في مجملها، ليس بالوقوف فقط

1 نعرب عن شكرنا لمختبر أركيواوربان URM 5133-ArchéOrient راعي مشروع الدراسة هذا منذ بدايته. أخذ المختبران أركيواوربان UMR, ArchéOrient و غرمو Gremmo (UMR 5195) على عاتقهما تمويل مختلف بعثات المشروع. و نتوجه بالشكر إلى كل من أوليفيه أورانش على نصائحه و دعمه و على مراجعاته المتتالية للنص ؛ موريل جيرار التي رافقتنا [دافيد و داردايون] في بعض التحقيقات و زودتنا بخرائط توزّع الأنشطة في سوق النحاسين الخاصة بها ؛ الدكتور محمود حريثاني الذي أفادنا [دافيد و داردايون] بمعرفته بالسوق و بحقل أنشطة التعدين الحرفيّة ؛ لى سمعان التي كانت مترجمتنا [دافيد و داردايون] في العديد من المقابلات مع الحرفيين ؛ عليا فركوح التي ساهمت في ترجمة [بعض مصطلحات] المصدر-الدليل إلى العربية.

على بيّنة من المعرفة بالمُحتَرَف، و مجاله الخاص، و بنائه، أو على بيّنة من تأثير المؤسسة الدينية، إنما أيضاً من المعرفة بالسستام السياسي، و الثقافي، و المجتمعي، فضلاً عن الحيّز المكاني لمجمل المدينة و المنطقة، و ذلك بما يكفي و يمكّننا من التعرّف على تلك الظواهرات.

يتوجّب التفكير، على سبيل المثال، في موقع أنشطة الصنع في الحيّز المدني، مع الأخذ بالاعتبار أهميّة المعادن الرائجة أو النفيسة كرموز أو أدواتٍ للسلطة، تلك الأهميّة التي يمكن لها أن تفسّر إدماج الأنشطة في مركز (قلب) المدينة و التحكم بها من قبل السلطة. كانت الأرجاء المتخصّصة، المكرّسة للأنشطة الاقتصادية - أسواقاً أو "مدناً صناعية" -، تتشكّل تدريجيّاً في المدينة، بمقدار ما كان كل نشاطٍ حرّفي يتحوّل إلى مهنة، تبعاً للتطورات التي كانت تُدخِل تغييراً، و لو جزئياً في الانتظام السياسي و المجتمعي السابق. لكن على الرّغم من ذلك، فإن وجود الترسانة المهمة ["دار الصناعة" العسكرية، تُلفظ arsenal بالفرنسية و هي تحوير للتسمية عربية الأصل "دار الصناعة" بحسب ما ترجّح المصادر]²، التي أسسها الأمير نور الدين (النزكي) في مركز المدينة العربية و الاسلامية في قصر الأمراء (الزنكيين و الأيوبيين) في قلعة حلب، في القرن الثاني عشر و القرن الثالث عشر ميلادي، كان قد حافظ على ديمومة هذه الممارسة القديمة في التحكم المباشر من قِبَل الأمير على الأدوات العسكرية للسلطة، تلك الممارسة التي وُجدت قبل ألفي أو ثلاثة آلاف سنة.

كذلك، أتاحت لنا معاينة المشاغل و المُحتَرَفات الحديثة أن نفسّر ندرة الشواهد الأثرية في أوغاريت، لا لأن هذه المُحتَرَفات كانت قائمة على أطراف أو خارج المدينة، بل لأنها كانت تستخدم موادّاً قابلة للتلف، وأدوات عمل غالباً ما تكون أقرب [في طبيعتها] من المواد الخام، و ذلك تماماً كما لا يزال يفعل الحرفيون حتى يومنا هذا . تُوجِب هذه المواد إذن، التي يصعب التعرّف إليها خلال التنقيب الأثري، عملاً تأويلياً للأثر الذي تخلّفه عليها أساليب و طرائق العمل.

بناءً على ما تقدّم، اعتمدنا برنامجاً للبحث الحقلّي في حلب و في مدن أخرى (دمشق، حماه، حمص). و سعينا لتنظيم معرفتنا بأنشطة التعدين التقليدية الراهنة إنطلاقاً من فكرة مفادها أن هذه الأنشطة تشكّل سستام من العناصر المتفاعلة في المدينة. آمّلين الوقوف على بيّنة من التقاطعات ما بين الأبعاد التقنية (عمليات الصنع) و الوظيفية (تنظيم العمل في المجال الداخلي للمُحتَرَف و الوضعيات الجسدية خلال العمل)، بدون إغفال التنظيم العام للحيّز المدني بعلاقته مع الإعتبارات الثقافية و المجتمعية و الاقتصادية، فضلاً عن دور مرجعيات السلطة. تشكّل هذه السستام المتداخلة و المتفاعلة في العصر الحديث إرثاً من الحقبة العثمانية، على وجه الخصوص، ما قبل القرن الثامن عشر، إضافة إلى أنها نتاج التحولات الجارية الناجمة عن العولمة و عن نمو المجتمع الاستهلاكي و توسّع المدن.

أجريت التحقيقات في حلب بين العامين 2004 و 2009 :

- أجرى محب شانه ساز (باحث في علم الإنسان، الجامعة اللبنانية - أصبح أستاذ مساعد منذ 2005، و هو باحث مشارك في ArchéOri- ent) في شهر تشرين الثاني من عام 2004 تحقيقات أولية لأقامة صلات تواصل مع المعرّفين و تحديد مواعيد مع الحرفيين لمعاينتهم خلال عملهم.
- أرسلت بعثة، في شهر أيلول 2005، جمعت محب شانه ساز و إيلا داردايون (عالمة آثار، باحثة مشاركة في ArchéOrient) و من ثم إيلا و جان- كلود دافيد (عالم جغرافيا و باحث مشارك في Gremmo و ArchéOrient)³.
- أجرى محب شانه ساز تحقيقاً جديداً في نيسان 2007، تلاه في تشرين الثاني 2007 تحقيق آخر أجراه جان- كلود دافيد و إيلا داردايون.
- وأخيراً، أثناء القيام ببعثات ضمن برامج [بحثية] أخرى تمكّننا من العودة بالتحديد إلى حقلنا الخاص بالتعدين في مدينة حلب، بخاصة في العام 2009.

2 الإضافات ضمن إشارة التدخل [...] هي من وضع المترجم.

3 ArchéOrient و Gremmo هما مختبران في المركز الوطني للأبحاث العلمية (CNRS) ينضويان ضمن بيت الشرق و البحر المتوسط (MOM) في مدينة ليون الفرنسية.

أجرينا خلال الزيارات مقابلات في المُحترفات، و قمنا بمعاينة و توثيق العمل و مجاله المكاني بالصور (1500 صورة في أقل تقدير) و بالرسومات الحرّة. و قد قمنا قدر المستطاع بتدوين المصطلحات التقنية المحكية الخاصة بالحرف.

تقع مختلف مهن مُعالجة المعادن، التي نوليها اهتمامنا، في الأحياء القديمة على العموم، و أحياناً في الأحياء الحديثة أيضاً، كما في الضواحي، أو حتى على هوامش النسيج المدني. يتواجد في المدينة القديمة و في محيطها، الحدّادون و المبيّضون في باب النصر (في سوق النَّحّاسين تحديداً) و في باب الحديد، و حرفيو النَّحّاس في باب النصر [سبرد مصطلح نِحّاسة للدلالة على الحرفة، و نِحّاسة للمُحترَف، و نِحّاسيّات للإشارة إلى المنتجات أو إلى الأنشطة بعمومها بالنحّاس، أما النَّحّاس فهو الحرفي]، أما صاغة الفضة و الذهب فيتواجدون في مواضع مختلفة من الأسواق المركزية كمنطقة الجديده [الجديدة] و في الحي المسيحي و الحي الاسلامي الحديث في منطقة محطة بغداد. و تقع مشاغل الحديد و الفونت (الحديد الزهر) و البرونز في مُحترفاتٍ أخرى، غالباً ما تكون أكبر في أحجامها، تتموضع خارج المدينة، شرقي حلب مثل [منطقة] الشيخ خضر، و شمالاً في المدينة الصناعية في [منطقة] الشقيف. أما في [منطقة] الشيخ سعيد، التي تبعد 10 كلم إلى الجنوب من حلب، فتتواجد مُحترفات (غير شرعية) يتم فيها مُعالجة الرصاص بالهواء الطلق جزئياً، التي قمنا باستطلاعها من غير التمكّن من إجراء تحقيقات ممنهجة فيها و بصدها.

أفضى بحثنا الأنتروبولوجي و الاجتماعي (السوسيولوجي) حول هذا الجانب من اقتصاد المدينة المعاصرة، إلى تشكيل باقة متناسقة بدا لنا إمكانية نشرها بشكلٍ مستقلٍ عن المقارنة مع معطياتنا الأثرية. و هذا ما قررنا القيام به عند بدء اندلاع الصراع في سوريا، في عام 2011، الذي جعل كل أشكال البحوث عن المدينة القديمة، و أنشطتها الشعبية، و تراثها غير المادي، المهّد بالتدمير أمراً ملحاً. و قد تركنا جانباً الجانب القديم و الأثري من البحث بغية توصيف الأنشطة التي لا زالت حيّة و تمكّننا من معاينتها بشكلٍ أساسي. أما التحقيقات الحقلية التي أجريناها في حلب قبل عام 2011 و الصور التي التقطناها، فقد وثقت الأنشطة التي توقفت أو اندثرت راهناً (2016) في المُحترفات الواقعة قرب خطوط المواجهة، و التي نُهبّت و دُمّرت و أصبحت مسرحاً للمعارك. عمّلت، بلا شك، بعض هذه المُحترفات المتخصصة بأشغال التعدين المُحدّث في صنع الأسلحة و الذخيرة للمتطرفين، بخاصة أنشطة صهر المعدن و سكبه في قوالب من رمل على هيئة قنابل يدوية و قذائف الهاون و القذائف المضادة للدروع التي تطلقها البنادق (« إيزرغا »).

تترتب الأفكار التي نستعرضها و نخلّص إليها على معاينة الأنشطة التي كانت لا تزال حيّة بالرغم من انحسارها. و قد تلمّسنا التطوّرات بين عامي 1990 و 2009، من خلال التحوّل الحاصل على مستوى الأنشطة الحرفية في الأسواق المخصّصة للزبائن المدنيين من الأحياء القديمة و الشعبية، و من خلال نمو أنشطة المُحترفات الواقعة في مناطق الأنشطة غير الشرعية غالباً، أو في المناطق الصناعية الشرعية. يبدو أن هذه التحوّلات تحفّز شكلاً من المؤسسات أكثر دينامية من المُحترفات-الحوانيت في الأسواق، مرتبطة بشبكات صناعية أكثر اتساعاً و أحياناً أكثر حداثة.

مع انتهاء القتال في حلب، على ما يبدو، و طرح التساؤلات حول تدمير التراث و إعادة تأهيله، نخرج بخلاصةٍ أخرى نراها أساسية مفادها أن: الشهادات التي جمعناها قد أصبحت ذات قيمة تراثية اليوم. غير أن مُحترفات و حوانيت سوق النَّحّاسين في باب النصر التي كانت قيد الترميم في العام 2000 قد تمّ تدميرها، و تمّ تشريد الحرفيين و عائلاتهم، بما فيهم من كان يشرع في تنمية نشاطه بما يتناسب و متطلّبات الزبائن، الأجانب على الأغلب، من الهواة أو السياح. ربما تعود هذه الأنشطة إلى الحياة مجدداً، لكننا لا نعلم حال السكّان و قدراتهم على الاستجابة، و من الصعب علينا تصوّر الشكل الذي سيخذه هذا الانبعاث.

و يتوجّب التأكيد لأولئك الذين يتساءلون حول مشاركة المرأة في المُحترفات، بأنه سؤال في غير موضعه. ففي الواقع، ينتظم المجتمع في الشرق الأدنى، منذ ما قبل ظهور الإسلام، وفق تقسيم للمهام و الأجزاء بين العالم المنزلي و العائلي النسوي بشكلٍ خاص، و بين العالم العام الذكوري بشكلٍ خاص. و تجري انشغالات الرجال في الحيز العام (الأسواق) أو في الميادين المتصلة به مباشرة (المُحترفات و الدكاكين و الأماكن

الدينية). في حين تجد انشغالات النساء المرتبطة بالعائلة و بالأولاد مباشرة حيّزها في المنازل. و قد تُوظَّف النساء أحياناً في تأدية بعض أعمال الإنتاج المرتبط بالاقتصاد العام، و غالباً ما يكون ذلك في وسطٍ ريفي يتّصل بالخارج عن طريق الرجال. تُسنثنى النساء من مُحترفات التعدين التي يتطلّب العمل فيها قوّة جسدية، على عكس حرفة المعادن النفيسة (صياغة الذهب و الفضة) التي قد تتوسّل مشاركة نسائية، بخاصةً عند المسيحيين و اليهود.

تقع مُحترفات التعدين التقليدية الصغيرة بخاصة، في عدّة أسواق، على خطوط المواجهة. و قد نُهبّت و أُفرِغَت من كلّ ما يمكن إعادة استخدامه. و دُمّرت المباني بفعل أعمال القصف و التفجيرات. و نزح الحرفيون كغالبية السّكان الى مناطق أخرى في سوريا، أو الى الخارج و تعرّضت منازلهم للتدمير أو للنهب. لا يمكن اليوم العثور على هؤلاء الحرفيين، كما لا يمكن معرفة الأماكن التي يوجدون فيها. بيّد أن هذا الوضع لا يعني نهاية الأنشطة الحرفية. و لا بد من إعادة إحيائها و إعادة إعمار الحيّز المدني مع العودة التدريجية لسكان هذه المناطق و عودة الشعور بالاستقرار.

إن الحوافز الرسمية الخاصة بالسلطات السورية و الحلبية، و تلك الخاصة بمنظمة الأونيسكو، في هذه المنطقة المصنّفة ضمن التراث العالمي، كما الإسهامات الهادفة إلى إعادة إحياء السوق، لا تزال في حالٍ جنينية؛ و سيكون من المُجدي، بلا أدنى شك، أن نُعاين ما سيحدث بالفعل، و كيف سيُعاد تنظيم هذه المُحترفات في أماكنها السابقة أو في غيرها. و مهما يكن من أمر، فإن معائناتنا التي أُجريت بين عامي 2004 و 2009 و التي ننشرها هنا تبقى مصدرًا للمعرفة لا غنى عنه، و سنّداً في إعادة الإعمار⁴.

4 نُشر جزء من هذه الأبحاث في داردايون و دافيد 2015 Dardaillon et David، و دافيد 2014b David et alii (Hypothese.org) ArchéOrient-Le Blog، و دافيد ArchéOrient-Le Blog (Hypothese.org) David 2015.